لاهوت التحرير
نظرة تاريخيَّة من الداخل

الأب وِلْيَم سِيْدهم اليسوعيّ*

تقديم

في السنين الخمس والعشرين الأخيرة، كَثُر الكلام على ما سُمِّي «لاهوت التحرير». وكان ميدانه الخاصّ بلدان أمريكا اللاتينيَّة، بسبب تأزُّم الأحوال الاقتصاديَّة التي عرفتها هذه القارَّة. ولكنَّه ما لبث أن انتشر في مناطق أخرى من آسية وأفريقيا.

ومع أنّ هذا اللاهوت يحاول اليوم أن يُعيد النظر في بعض مقولاته بسبب التغيُّرات التي طرأت في الشرق، فقد رأينا أن نضع بينْ يديّ القارئ العربيّ خلاصة تاريخيَّة لهذا التيَّار اللاهوتيّ الذي أثَّر أيضًا في الفنّ والسياسة والاقتصاد.

اللاهوت ـ علم الإلهيَّات

يعرِّف القدِّيس توما الأكويني علم اللاهوت بأنَّه العلم الذي يبحث في جميع المواضيع من وجهة نظر الله، «سواء أكانت هذه المواضيع الله نفسه أم كانت تفترض وجود الله كمبدأ وغاية». ويمكننا أن نشرح هذه الجملة بقولنا إنّ اللاهوت يكشف عن حضور الله الذي يتجسَّد في تاريخ البشريَّة من خلال

---

* أستاذ الفلسفة واللاهوت في معهد الدراسات اللاهوتيَّة بالسكاكيني (القاهرة).

جميع الأحداث التي يتضمّنها هذا التاريخ. فاللاهوت يبحث في مسيرة الله التي تتحقّق في الزمان، كما يبحث في سلوك البشر في إطار الزمان نفسه، ليتعرّف إلى مدى تطابقها مع تدبير الله الخلاصيّ.

ويمكننا القول إنّ هذا التعريف هو الذي ما زال، حتّى عصرنا الحاضر، يحكم إعمال العقل في مواضيع الإيمان من مختلف زواياها العقائديّة والأدبيّةوالأخلاقيّة في إطار الإيمان المسيحيّ. وقد تولّدت، على مدار تاريخ الكنيسة، تيّارات لاهوتيّة انحصرت في اللاهوت العقائديّ واللاهوت الأدبيّ واللاهوت الروحيّ.

وما يهمّنا في هذه العجالة هو أن نقدّم عرضًا لمولد تيّار لاهوتيّ جديد يتأصّل في تقليد الكنيسة الكاثوليكيّة اللاهوتيّ، وإن اعتُبر جديدًا وسببًا لمبوب عاصفة من المواقف المتناقضة، ألاَ وهو «لاهوت التحرير».

ويمكن الإشارة هنا إلى أنّ التيّارات التي سيطرت على الكنيسة الكاثوليكيّة في أرجاء المعمور، حتّى انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥)، تميّزت بطابعها الكلاسيكيّ التقليديّ التوماويّ.

ومع بداية القرن العشرين، وفي الفترة الواقعة خاصّةً ما بين حرب ١٩٤٥ وانعقاد المجمع الفاتيكانيّ المذكور، تعدّدت التيّارات اللاهوتيّة في أوروبّا. والذي ساعد على ذلك هو ذيوع الاتّصالات بين مختلف العلوم الإنسانيّة ووجود اللاهوت نفسه أمام تساؤلات إيمانيّة من نوع جديد أثارتها الاكتشافات العامّة الجديدة وقيام المجتمعات الصناعيّة. ففي هذا الإطار، تعدّد منشأ التيّارات اللاهوتيّة، وأصبح التعبير عن الإيمان بالله والتعبير عن هويّة الإنسان يتداخلان إلى حدّ بعيد. ويظهر ذلك في الدراسات التي تمحورت حول شخصيّة المسيح. ومن هنا نشأت تلك العلاقة الخاصّة القائمة بين «الجانب» اللاهوتيّ من جهة، و«الحديث عن الإنسان» من جهة أخرى، أي بين ما يسمّى «علم اللاهوت» و«علم الإنسان» (أنثروبولوجيا)، بعد انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني خاصّةً.

وانطلاقًا من الآفاق والمناهج المختلفة التي كانت تحرّك المفكّرين في ذلك

الوقت، ظهرت التيّارات الآتية: اللاهوت المدرسيّ الجديد واللاهوت الأنتربولوجيّ الترانسندنتالي واللاهوت الخاصّ بالحقائق الأرضيّة واللاهوت السياسيّ... إلخ.

وإنّ أغلب هذه التيّارات اللاهوتيّة قد جمعها عامل مشترك ذو طبيعة جغرافيّة، فلقد نشأت وترعرعت في حضن الغرب، في أوروبّا بالتحديد. إلاّ أنّه، منذ بضع عشرات السنين، وبفضل الشموليّة الحقيقيّة التي تتّسم بها الكنيسة المنتشرة في جميع أرجاء المعمور، وبفضل النضج التدريجيّ الذي وصلت إليه القارّات الأخرى، ظهرت في الأفق تيّارات لاهوتيّة جديدة، ولا سيّما في إطار ما يسمّى «العالم الثالث»، ونذكر، على سبيل المثال، أمريكا اللاتينيّة التي وُلد فيها لاهوت ذو طابع خاصّ، أطلق على نفسه اسم «لاهوت التحرير».

المجمع الڤاتيكانيّ الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥)
وتكوين لاهوت التحرير في الجنين

وُلد لاهوت التحرير واستمدّ شرعيّته، على مستوى المؤسّسة الكنسيّة الكاثوليكيّة، من حضن المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، بطريقة بطيئة ومتدرّجة، إذ لا يخفى على أحد أنّه، خلال هذا المجمع الكبير، حدثت مواجهة بين أنصار اللاهوت المدرسيّ الجديد، الذي كان منتشرًا في مجمل الكنيسة الكاثوليكيّة في ذلك الوقت، وأنصار التيّارات اللاهوتيّة الأخرى التي ذكرناها. وقد اتُّخذت هذه المواجهة أحيانًا طابعًا مأسويًّا.

وكان من نتيجة هذه المواجهة بين التيّارَين الرئيسيّين في المجمع أن توصّل المجتمعون إلى صيغة توفيقيّة تُرضي جميع الأطراف، انعكست بوجه واضح في المركّب العقائديّ الذي ظهر في الدساتير المجمعيّة الآتية: «نور الأمم» وهو عبارة عن رؤية جديدة للكنيسة، و«فرح ورجاء» المتميّز بانفتاح الكنيسة على العالم، و«كلمة الله» الذي يبحث في علم التفسير الكتابيّ، و«الكرامة الإنسانيّة» الذي تطرّق إلى الحرّيّة الدينيّة.

ولا شكّ [illegible] جميع تلك الوثائق للمجمع [illegible] قد حملت في طيّاتها بذور [illegible]ر الذي انتشر [illegible] في الفترة التي [illegible] المجمع، ولا سيّما في القارّة الأمريكيّة اللاتينيّة

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى عدم بروز الصوت الأمريكيّ اللاتينيّ أثناء انعقاد المجمع المسكونيّ، باستثناء بعض الوجوه النادرة ذات الطابع النبويّ، وقد جذبت إليها انتباه المشاركين في المجمع، كالأسقف البرازيليّ دوم هلدر كامارا الذي أسهم في صياغة دستور الكنيسة في العالم المعاصر «فرح ورجاء»، بالإضافة إلى الأسقف التشيليّ مانويل لارين الذي انتُخب رئيسًا لمجلس أساقفة أمريكا اللاتينيّة في الفترة الواقعة أثناء المجمع.

وفي غمرة انعقاد المجمع المسكونيّ في رومة، أخذت الأفكار التي أثارها تتبلور في قارّة أمريكا اللاتينيّة. ففي عامَي ١٩٦٤ و١٩٦٥، عُقدت عدّة لقاءات ظهر فيها إحساس مشترك بضرورة الوصول إلى تيّار لاهوتيّ جديد، يعتمد على التاريخ وينطلق من التجديد الذي أحدثه المجمع، ومن واقع الناس الصعب الذي تعانيه القارّة الأمريكيّة الجنوبيّة.

التطلّع نحو التحرُّر
والطريق إلى مؤتمر مدلّين ١٩٦٨

وأراد جان لويس سيغوند اليسوعيّ، وهو من الأوراغواي، وغوتييريز من بيرو وجيرا من الأرجنتين، أن يترجموا ذلك الإحساس المشترك بواجب القيام بخطوات عمليّة، فاقترحوا نمطًا من التبشير بالإنجيل مبنيًّا على تكوين لاهوتيّ جديد يكون أكثر انتقادًا للواقع وأكثر التزامًا به، يختلف عن اللاهوت المدرسيّ التقليديّ الجديد الذي تكوّنوا هم أنفسهم عليه.

والتقت هذه المجموعة الصغيرة من اللاهوتيّين مجموعات أُخرى كانت تنطلق من التحليل الاجتماعيّ للتبعيّة والتخلّف الاجتماعيّ اللذين تعيشهما القارّة الأمريكيّة الجنوبيّة.

فبدأ اللاهوتيّون بدراسة تاريخ أمريكا اللاتينيّة على وجه خاصّ، ثمّ

ركّزوا في هذه الدراسات على قضيّة الصراع الطبقيّ الذي تميّز به هذا التاريخ وعلى التناقض القائم بين الرأسماليّة والاشتراكيّة، وكانت التجربة الكوبيّة مرجع تلك الدراسات الواقعيّ والعمليّ. وفي الوقت نفسه، أخذت بعض الشخصيّات اللاهوتيّة في البرازيل والأرجنتين وتشيلي تمارس بعض وجوه التحليل الماركسيّ بصفته «المادّيّة التاريخيّة».

وقد رحّبت تلك الشخصيّات بالبيان الذي أصدره الأسقف هلدر كامارا بمناسبة انعقاد مؤتمر رؤساء مجلس أساقفة كنائس أمريكا اللاتينيّة العاشر في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٦ في البرازيل. وجدير بالذكر أنّ الأسقف أفيلار براندو انتُخب في هذا المؤتمر رئيسًا لمجلس رؤساء أساقفة أمريكا اللاتينيّة. فبدأ الكلام، في هذا المؤتمر، على تحرير القارّة الأمريكيّة الجنوبيّة تحريرًا حقيقيًّا وعلى «الخطيئة الجماعيّة».

ولمّا ظهرت رسالة بولس السادس الرسوليّة عن «تقدّم الشعوب»، في عام ١٩٦٧، استقبله تيّار التحرير بشيء من الفتور واعتبره لا يعبّر تعبيرًا وافيًا عن تطلّعاته.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، أثناء انعقاد مؤتمر مجلس رؤساء أساقفة أمريكا اللاتينيّة الحادي عشر في ليما، عاصمة بيرو، وجّه الأساقفة المجتمعون نداء يدعو إلى تبنّي استراتيجيّة رعويّة شاملة وجديدة على امتداد القارّة، اتّضحت معالمها بعد ذلك في مؤتمر مدلّين.

وعلى أثر هذا النداء، قامت بعض التعليقات الكنسيّة بمساندته. وأقرب مثال إلى ذلك، الرسالة الجماعيّة التي حرّرها رؤساء الأقاليم اليسوعيّة في أمريكا الجنوبيّة في أيّار (مايو) ١٩٦٨، وكان الأب بدرو اَرّوبه، الرئيس العامّ على الرهبانيّة اليسوعيّة، حاضرًا بنفسه في الاجتماع الذي حُرِّرَت فيه تلك الرسالة في ريو دي جانيرو. وتنطلق هذه الوثيقة من قاعدة تبنّي التحليل الاجتماعيّ لتصل إلى العمل على التنديد الجريء والبنويّ بالظلم الحقيقيّ الذي يسود المجتمع الأمريكيّ اللاتينيّ. وتبنّت الرسالة أيضًا التوجّه المبدئيّ للتحرّر من كلّ أشكال العبوديّة في المجتمع، وتحقيق الغاية المرجوّة من البشارة المسيحيّة.

وفي تموز (يوليو) من عام ١٩٦٨ اجتمع أبرز ممثلي لاهوت التحرير في شمبوت (دولة بيرو)، حيث قام غوتييريز بعرض شامل لرؤيته لما يسمّى لاهوت التحرير. وكان هذا العرض بمثابة حجر أساس لبناء هذا التيّار الجديد.

وفي إطار ذلك الجوّ العامّ العابق بالرغبة في التغيير، الذي خلقه أصحاب الاتّجاه اللاهوتيّ الجديد، عُقد مؤتمر مدلّين الشهير، في دولة كولومبيا، وهو المؤتمر الثاني الذي اشترك فيه مجلس أساقفة أمريكا اللاتينيّة في ما بين ٢٨ آب (أغسطس) و٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨. وقد كان هذا المؤتمر لحظة حاسمة في تاريخ كنيسة أمريكا اللاتينيّة وفي تاريخ لاهوت التحرير على السواء.

وعبَّر الأسقف الإسبانيّ كازلدا ليدا، بصفته مرسلاً إلى البرازيل، عن هذه الحقيقة بما معناه أنّ هذا المؤتمر كان بمثابة ميلاد جديد للكنيسة في أمريكا اللاتينيّة. فقد دلّ على تحوُّل في البنية المراتبيّة المتطرِّفة التي كانت في الكنيسه، وعن تجديد سرّ الكهنوت والحياة الرهبانيّة، كما اعترف بنشأة الكنيسة الشعبيّة من قبل الجماعات الأساسيّة، بالإضافة إلى تبنّي مفهوم التربية التحرُّريّة، وبروز الالتزام السياسيّ المسيحيّ. وشهد هذا المؤتمر أيضًا ما سُمّي «لاهوت العبوديّة».

لاهوت التحرير يتحدَّث عن نفسه
(غوتييريز - ليونارد بوف)

يُعتبر عام ١٩٧١ مرحلة حاسمة في تاريخ تطوُّر لاهوت التحرير. فقد تميَّز هذا العام بحدثَين هامَّين. أوَّلهما هو بروز ثقل أساقفة أمريكا اللاتينيّة داخل السينودس الذي عُقد في رومة، وثانيهما هو ظهور أوَّل كتابَين يبحثان في مضمون هذا اللاهوت وأهدافه، في بيرو والبرازيل:

الحدَث الأوَّل: كانت أوضاع الكنيسة الكاثوليكيّة في هذا العام مليئة بالتوتّرات، ولا سيّما في أوروبّا بعد الأحداث الطلابيّة العماليّة التي جرت في عام ١٩٦٨، وبعد ردود الفعل التي سبَّبتها الوثيقة البابويّة التي صدرت في تمّوز (يوليو) ١٩٦٨ عن «الحياة البشريّة».

وظهر النقد، في كلّ مكان، لما تُمثّله السلطة البابويّة والأسقفيّة من ثقل تاريخيّ، كما قامت تساؤلات جوهريّة في العالم الكاثوليكيّ حول هويّة الكاهن ودوره في الكنيسة. وكان لتلك التوتّرات أثر بعيد في الأوساط المعاصرة.

وفي ظلّ هذه الأجواء، استشعرت روما بأنّ مركز ثقل الكنيسة الاجتماعيّ الرعويّ أخذ يتحوّل من القارّة الأوروبيّة إلى قارّات أخرى «أكثر قوّة»، ولا سيّما القارّة الأمريكيّة الجنوبيّة. ورافقت هذا الإحساس ضرورةُ الاهتمام المركّز على الوضع الظالم الذي لا ينتظر التأجيل في هذه المناطق الأمريكيّة اللاتينيّة. وفضلاً عن هذا الاهتمام، برزت الأزمة الحقيقيّة حول هويّة الكاهن ودوره في الكنيسة.

وشكّلت جميع تلك الاهتمامات جدول عمل سينودوس الأساقفة الكاثوليك الذي انعقد في روما في خريف ١٩٧١.

وفي أثناء دورات هذا السينودس، برز الثقل المتنافي لاثنين وعشرين أسقفًا يمثّلون عدد مجالس الأساقفة في قارّة أمريكا اللاتينيّة. وكانت بعض الوجوه الجديدة التي انتُخبت حديثًا في القارّة المذكورة من المناصرين للتيّار اللاهوتيّ الحديث، ولا سيّما من دولتَي بيرو والبرازيل، وقاموا بدَور هامّ في أعمال السينودس.

الحدث الثاني: بعد سلسلة من اللقاءات المتوالية التي تمّت في ١٩٧٠ بين لاهوتيّي التحرير في بوغوتا وبوينس أيرس وبوليفيا، لُخّصت مواقفهم في شعار واحد، هو «لاهوت التحرير». وفي عام ١٩٧١، ظهرت في أسواق بيرو أوّل وثيقة منشورة تتحدّث بالتفصيل عن هذا اللاهوت. وكان عنوان الكتاب: «لاهوت التحرير»، لمؤلّفه الأب غوستافو غوتيريز، وهو يُعتبر الآن من كلاسيكيّات لاهوت التحرير. وبعد مرور فترة قصيرة على نشر هذا الكتاب، صدر في البرازيل كتاب لا يقلّ أهمّيّة عن الأوّل، وعنوانه: «يسوع المسيح المحرِّر، دراسة نقديّة لِعلم المسيح»، ومؤلّفه هو الأب ليونارد بوف الفرنسيسكانيّ.

وعلى الرغم من الاختلاف في وجهة نظر الكتابَين، فإنّ هدفهما كان

وحدة، بل إنّ منهج الكتابة كان متوازيًا. ومن المفيد هنا أن نذكر أنّ هذين اللاهوتيّين، بالإضافة إلى زملائهما في التوجّه نفسه، كانا قد تلقّيا تكوينهما في إطار اللاهوت المدرسيّ الجديد، إلى جانب اللاهوت الذي ظهر بعد انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني. كما أنّ العديد من هؤلاء اللاهوتيّين كانوا قد أنهوا دروسهم في بلدان أوروبّا وكندا والولايات المتّحدة الأمريكيّة، وكانوا مطّلعين أيضًا على أهمّ التيّارات اللاهوتيّة الغربية.

ولّما رأوا أنّ جميع هذه التيّارات غير مناسبة للأوضاع الخاصّة بالقارّة الأمريكيّة اللاتينيّة، أرادوا أن يتفادوا الوقوع في الإخفاق ثانية. فحاول غوتيريز، في كتابه المذكور، أن يُدخِل تعديلات عميقة على المفهوم الأوروبيّ لكلمة «لاهوت» وكلمة «تحرير». فليس اللاهوت، في نظره، مجرّد معرفة علميّة بأكبر قدر ممكن، بل هو موقف عمليّ أيضًا إلى حدّ بعيد، وهو مسخّر أوّلاً لخدمة الشعب المسحوق، لا لخدمة السلطة الكنسيّة.

والرغبة في البقاء في حضن الكنيسة دفعتهم إلى المبالغة في نقدها. وأصبحت قراءتهم للكتاب المقدّس، منذ البداية، قراءة نقديّة، بمعنى أنّها لا تأخذ النصوص على علاّتها، كالقراءة العاديّة، بل تركّز على الإطار التاريخيّ الذي كُتب فيه النصّ المقدّس، وما يحتويه هذا الإطار من ظروف اقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة... ثمّ تحاول، بعد ذلك، أن تكتشف كيف يطبّق النصّ على أوضاع أمريكا اللاتينيّة التاريخيّة، وأن تنطلق من فكرة أنّ هذه الأوضاع تعبّر تعبيرًا صارخًا، في هذه المرحلة التاريخيّة، عن «تجسيد اللاعدالة». ومن هنا غالبًا ما تكون قراءة الكتاب المقدّس محمّلة بالتنديد النبويّ المستمرّ بحالة اللاعدالة السائدة في المجتمع، يرافقها أحيانًا بعض التفسيرات الرؤيويّة للأمور، كما أنّ هناك نيّة معلنة للدخول في معترك السياسة.

وهذا الاتّجاه في تفهّم معنى كلمة «اللاهوت» تدعمه نظرة غوتيريز إلى كلمة «تحرير»، وهي تتضمّن ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة التحرير الاجتماعيّ الاقتصاديّ، بمعنى تغيير الأوضاع الاجتماعيّة الاقتصاديّة لما فيه مصلحة جميع طبقات المجتمع وعدم احتكار طبقة لفوائد اجتماعيّة اقتصاديّة على حساب الطبقة الأخرى.

المرحلة الثانية: وهي حصول الفقراء والمسحوقين على حرّياتهم الجوهريّة، لامتلاك القدرة على الإسهام في بناء التاريخ الشخصيّ. ومعناه المشاركة في توجيه دفّة الأمور في البلاد، والخروج من موقف تنفيذ المشاريع الفوقيّة إلى موقف المشاركة الفعّالة.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة تُحقّق الأخوّة الإنسانيّة المبنيّة على الإيمان المشترك، وهي تفترض تحقيق المرحلتين الأولى والثانية.

وانطلاقًا من تلك الأفكار، يسهل فهم العديد من وجوه «لاهوت التحرير» الأخرى الفرعيّة، كدور الجماعات المسيحيّة الشعبيّة، والدور الجديد المفروض على الكاهن في الرعيّة، من حيث تضامنه مع الفقراء، بدلاً من كونه مجرّد ممثّل للسلطة التراتبيّة ومدافعًا عن العقيدة المسيحيّة. وبالتالي، لا يصبح إعلان الإنجيل بشارة عقائديّة أوّلاً، بل بشارة حياتيّة تعمل بروح فهم الإنجيل فهمًا حيًّا، وتغيّر الواقع الاجتماعيّ من خلال التنديد بالظلم الذي تمارسه البشارة النقديّة، وإبداع طرق جديدة للحياة المسيحيّة. فيصبح التوجّه الإيمانيّ في الوقت نفسه توجُّهًا من أجل العدالة. أمّا البحث في علم المسيح، فيجب أن ينطلق من الأرض، أي من صفته الإنسانيّة ووضعه البشريّ وتضامنه مع الفقراء، لا من «السماء»، من صفته «الإلهيّة».

ولا شكّ أنّ تفهُّم واقع أمريكا اللاتينيّة تفهُّمًا صحيحًا يقوم على درسه وتحليله بمساعدة العلوم الاجتماعيّة، ولا سيّما انطلاقًا من نظريّة «التبعيّة»، أي تبعيّة البنى الاقتصاديّة السياسيّة الثقافيّة في الدول الكبرى. كما يجب الاستعانة بالمقولات النابعة من «المادّيّة التاريخيّة»، على أن يقوم ذلك بوجه معتدل.

أمّا كتاب ليونارد بوف، فبعد أن عالج فيه إجمالاً جميع التصوُّرات والمفاهيم المسيحانيّة الرئيسيّة المعاصرة، فإنّه يتبنّى طريقة جديدة في التفسير، يمكن تلخيصها بما يلي:

١) أوليّة علم الإنسان على علم الكنيسة، لأنّ الاهتمام الأوّل يجب أن ينصبّ على الإنسان الذي سُلبت إنسانيّته، أكثر من أن ينصبّ على الكنيسة التي

لا يمكن أن تقوم سياسة [illegible] إلا من [illegible] الواقع الأمريكي اللاتيني، في ضوء فهم الإنجيل الخلاّق والمحرّر.

٢) أوّليّة «الأوتوبيّ» (utopique) على «الواقعيّ». ويجب أن يُفهم من «الأوتوبيّة» (utopie) المسيحيّة، لا الأوهام، بل الأمل الذي يولّده الإنجيل بإمكانيّة تغيير الوضع الظالم والانفتاح لمستقبل مشرق. وهذا لا يعني إهمال الواقع، بل تجاوزه إلى ما هو أفضل.

٣) أوّليّة ما هو «نقديّ» على ما هو «عقائديّ»، لأنّ العقيدة جامدة بطبعها، تدافع عن المؤسّسات وتبرّر وجودها، والظرف الحاليّ في أمريكا اللاتينيّة يحتاج إلى تطوير المؤسّسات الكنسيّة وتطوير فهمها للإنجيل، بطريقة جديدة تتماشى مع التغيّرات التاريخيّة. فتصبح أوّليّة النظرة النقديّة أمرًا ملحًّا.

٤) أوّليّة «الاجتماعيّ» على «الشخصيّ»، لأنّ الخلاص لا يقتصر على التحوّل الشخصيّ، بل إنّ هناك ظواهر اجتماعيّة مرتبطة به، كوجود فئات عريضة من الناس لا صوت لهم، يفتقرون إلى أبسط حقوقهم من السكن والتعليم. ومن هنا يصبح «البعد الاجتماعيّ» ضرورة تسبق «البعد الشخصيّ»، وإن لم تهمله.

وجميع تلك العناصر تقتضي التحوّل الباطنيّ، «التوبة» التي أعلنها وما زال يعلنها يسوع المحرّر في الإنجيل. وهي موجّهة إلى الكنيسة جماعةً وأفرادًا. ولا بدّ أن يكون التحوّل هنا في «العقليّة» وفي المواقف، وهي تقتضي أن يتحوّل الشخص إلى طاقة ثوريّة تسهم في تنوير العالم. والوسائل الفعّالة التي توصل إلى هذا التحوّل الباطنيّ والخارجيّ هي التنديد النبويّ والموقف النقديّ اللذان يؤدّيان إلى الموت والقيامة.

ونرى من كلّ ذلك أنّ المؤلّفين يشدّدان على أنّ نقطة انطلاقهما ترتكز على اختيارهما الروحيّ التابع من صلب الكتاب المقدّس ومن زاوية محدّدة، وهي توجّه يسوع الناصريّ نحو فقراء هذا العالم، وأنّ هؤلاء الفقراء في أيّامنا هم الطبقة الاجتماعيّة المستغَلّة والمضطهَدة في أمريكا اللاتينيّة.

إنّ مثل تلك المواقف الجديدة في الكنيسة، والعميقة في الشكل والمضمون، لم يكن ممكنًا لها أن ترى النور، لولا الأجواء العامّة التي أفرزتها فترة ما بعد المجمع المسكونيّ الثانيكانيّ الثاني. إلاّ أنّ هناك تحفّظات ذات طابع رعويّ أثارتها اتّجاهات لاهوت التحرير الجديدة، ولا سيّما مفهوم هذه الاتّجاهات للممارسة السياسيّة.

ففي اجتماع سينودس الأساقفة الكاثوليك الثاني، المنعقد في روما عام ١٩٧١، والذي سبق ذكره، حُرِّم على الكهنة تحريمًا صريحًا أن يمارسوا السياسة وينخرطوا في الكفاح السياسيّ، وكان هذا العمل مطلبًا من مطالب بعض تيّارات «لاهوت التحرير». وقد قُبلت بعض الاستثناءات فقط، على أن يكون ذلك بترخيص من الأسقف المحلّيّ.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ الكهنة اتّخذوا مواقف معاكسة بانخراطهم في جماعات أو أحزاب أو حركات سياسيّة. وعلى سبيل المثال، هناك مجموعة أُطلق عليها تسمية «مجموعة الـ ٨٠». فقد قاموا بعمل «اللقاء الأوّل للمسيحيّين من أجل الاشتراكيّة» في ستياغو (تشيلي) في نيسان (أبريل) ١٩٧٢، وكان من الحاضرين معهم بعض لاهوتيّي التحرير. وصدر عن هذا اللقاء بيان نقتطف منه عبارة تدلّ على الروح التي تعبّر عن التزامهم: «حين نلتزم ببناء الاشتراكيّة، نفعل ذلك انطلاقًا من تحليلنا الموضوعيّ للواقع التاريخيّ القائم في أمريكا اللاتينيّة، ولأنّنا وصلنا إلى الاقتناع بأنّه الطريق الوحيد لمحاربة الأمبرياليّة وتحطيم جميع ربط التبعيّة التي تقيّدها».

لقاء الإسكوريال
واكتساب أرض جديدة (١٩٧٢)

ومع أنّ كُتُب لاهوت التحرير المختلفة قد انتشرت بسرعة في الأمريكيّتين، فإنّ الأوروبيّين لم يطّلعوا عليها، باستثناء بعض الأوساط المثقّفة. ويمكن اعتبار اللقاء، الذي تمّ من ٨ حتّى ١٥ تمّوز (يوليو) ١٩٧٢ في الإسكوريال في عاصمة إسبانيا، تاريخ دخول لاهوت التحرير إلى القارّة

الأوروبيّة على نحو معيّن. وكان موضوع اللقاء «الإيمان المسيحيّ والتغيرات الاجتماعيّة في أمريكا اللاتينيّة».

وكان منظّم ذلك اللقاء معهد «الإيمان والعلمانيّة»، بالرغم من التحفّظات التي أبدتها الحكومة الأسبانيّة في شأن عقد هذا اللقاء، وبالرغم أيضًا من معارضة المجموعات الكاثوليكيّة المتطرّفة، التي شتمت المجتمعين بأقطع الألفاظ ووصفتهم بالماركسيّين و«المخرّبين».

وقد تجاوز عدد المشاركين في المؤتمر ثلثمائة. وبعد المشاورات في إعداد اللقاء، تقرّر أن يؤذن في الكلام لأكبر ممثّلي مختلف روافد لاهوت التحرير.

وممّا يلفت الانتباه في هذا المؤتمر حضور الكثيرين من الرهبان، ولا سيّما من الرهبانيّة اليسوعيّة، ووجود العديد من المتخصّصين في العلوم الاجتماعيّة، كما لوحظ غياب الاختصاصيّين في علم الاقتصاد، فضلاً عن أنّ أغلبيّة اللاهوتيّين هم خرّيجو المعاهد اللاهوتيّة في أوروبّا. ومن الجدير بالذكر أيضًا أنّه كان هناك توجّه واحد مزدوج يطغي على معظمهم، وهو التوجّه المسيحيّ الاشتراكيّ، الذي يدلّ على تمسّكهم بالإيمان المسيحيّ وبتبنّيهم، في الوقت نفسه، توجيهات الاشتراكيّة المعارضة للنزعة الرأسماليّة.

ويصعب علينا هنا أن نلخّص مضمون ذلك اللقاء المتعدّد الوجوه. فنقول فقط إنّ تيّارين رئيسيّين ظهرا في هذا المؤتمر: تيّار أوّل متشدّد، وتيّار آخر معتدل. أمّا زبدة ما أثير في اللقاء، فيمكن استخراجه من إحدى الحلقات التي تطرّقت إلى خصائص لاهوت التحرير في إطار أمريكا اللاتينيّة العامّ:

١) المقصود بلاهوت التحرير هو مشروع لاهوتيّ جديد يشمل جميع وجوه الإيمان المسيحيّ.

٢) مصدر هذا اللاهوت هو الاختبار الروحيّ الذي يدفع إلى العمل السياسيّ.

٣) نقطة انطلاقه، ونحن لا نجدها في اللاهوت الأوروبّيّ، هي رفض الواقع التاريخيّ الاجتماعيّ المحلّيّ، لأنّه واقع ظالم.

٤) وهذه الممارسة بعض السياسي تثير أزمة في داخل الإيمان، كما أنها تتطلّب أن تقوم قطيعة مع المصادر المعرفيّة التقليديّة.

٥) يرتدي هذا المشروع طابعًا نبويًّا، فإنّه يُعيد تفسير الحقائق الإيمانيّة انطلاقًا من واقع الكنيسة التاريخيّ ويخضع في الوقت نفسه لتفسير الإيمان. وهذه العلاقة الجدليّة بين الإيمان والتاريخ تجعل من الحقيقة الإيمانيّة واقعًا ديناميًّا، يدفع الكنيسة إلى الأمام، كما يجعل من التاريخ محكًّا واقعيًّا يمكّننا من معرفة الدرجة التي وصل إليها تجسُّد هذا الإيمان.

٦) الشعب هو الفاعل الأصليّ للاهوت، إذ إنّ كلمة الله موجّهة أصلاً إلى الفقراء، وهم أقرب الناس إلى فهم عمل هذه الكلمة في حياتهم وإلى التعبير عنها. فاللاهوت الذي يخرج من الشعب، لا من مكاتب اللاهوتيّين، هو الذي يتحدّث باسم هذا الشعب.

٧) التاريخ هو المكان الذي يولَد فيه اللاهوت في الأساس، لأنّه الإطار الذي يتجسّد فيه حضور الله للبشر. ولذلك يمتدّ لاهوت التحرير بجذوره إلى التقليد الكنسيّ، كما يُضاف إلى هذا التقليد ويجدِّد فيه.

ونشير هنا إلى ما ظهر من تحفُّظات مختلفة حول اللغة الجديدة التي تحدَّث بها المشاركون، والأهمّيّة الخاصّة التي حظيت بها العلوم الإنسانيّة في اللاهوت الجديد، بالإضافة إلى الروحانيّة بمفهومها الجديد، كما يفترضها هذا اللاهوت.

كانت ردود الفعل على اجتماع الإسكوريال واسعة، سواء أكان في الأوساط الكنسيّة أم الأوساط الحكوميّة، كما أنّها تجاوزت المستوى النظريّ إلى المستوى العمليّ بسبب النقد الذي وُجِّهَ إلى الأوساط الكاثوليكيّة المتطرِّفة. وعلى سبيل المثال، فإنّ الحكم الدكتاتوريّ في البرازيل رفض منح تأشيرة الدخول إلى البلاد لبعض المرسلين المشتركين في هذا اللقاء. وفي جميع الأحوال، كان هذا الحدث سببًا في دخول لاهوت التحرير إلى القارّة الأوروبيّة.

دخول لاهوت التحرير في دوّامة التوتّر والانتقاد

كلّما تقدّم لاهوت التحرير وانتشر من خلال المؤلّفات المتعدّدة اللافتة للنظر، تولّدت المواقف والأزمات والانتقادات من كلّ حدب وصوب.

ففي مؤتمر ١٩٧٢، انفجرت التوتّرات علنًا وصراحةً في دورة انعقاد مجلس رؤساء أساقفة أمريكا اللاتينيّة الرابع عشر في بوليفيا، حين تمّ انتخاب الأسقف إدواردو بيرونيو البرازيليّ رئيسًا للمجلس. ففي الوقت الذي وُضع فيه مشروع رعويّ يتمشّى مع توجيهات السينودس الرومانيّ الثالث، ارتفعت أصوات مختلفة مناهضة للاهوت التحرير. لقد حظي هذا المشروع بمساندة مجلس أساقفة البرازيل وبعض الأساقفة الآخرين وأغلبيّة الرهبانيّات، في حين حاربته قطاعات أخرى بقوّة. ومن ذلك اليوم، بدأ مجلس أساقفة أمريكا اللاتينيّة يتقهقر وينحدر من تحفُّظ إلى تحفُّظ في مساندته لاهوت التحرير.

وانعكس هذا التحفُّظ على مواقف بعض الأوساط الكنسيّة، كما جرى في إسبانيا مثلاً، عام ١٩٧٣، حيث تجاهلت «محادثات طليطلة» لاهوت التحرير تمامًا، مع أنّ موضع المحادثات كان يدور حول مواضيع لها علاقة بهذا اللاهوت، واضطُرّ المسؤول عن إدارة اللقاء إلى أن يضيف إلى أعمال الندوة التي نُشرت فيما بعد مقدّمة تتحدّث عن مؤلّفات غوتييريز. وتكرّرت الظاهرة نفسها في العام عينه حين انعقد الأسبوع الكتابيّ الإسبانيّ الثاني والثلاثون والأسبوع اللاهوتيّ الإسبانيّ الثامن والثلاثون.

وعلى نقيض ذلك، فإنّ الملاحظات التي أبداها الأب بدرو اروبه، الرئيس العامّ على الرهبانيّة اليسوعيّة، في أثناء زيارته لأمريكا اللاتينيّة في العام نفسه، تدخل في سياق أكثر التزامًا وأكثر قربًا من لاهوت التحرير.

تحوُّل لاهوت التحرير من قضيّة محلّيّة إلى قضيّة عالميّة
سينودس الكنيسة الكاثوليكيّة (١٩٧٤)

وانقضى عام ١٩٧٤ تحت شعار إعداد اللقاء الثالث لسينودس الأساقفة المعتاد في رومة، بعنوان «البشارة في عالمنا المعاصر». وكان هذا الحدث يعني أمريكا اللاتينيّة، فقد وُضعت في جدول الأعمال إشارة صريحة إلى العلاقات المتبادلة بين إعلان الإنجيل وترقية العالم وتحريره.

وقد أشار البابا بولس السادس مرارًا في بعض لقاءاته الأسبوعيّة، التي

تمّت خلال السنة ١٩٧٤ وقبل افتتاح السينودس في تشرين الأول (أكتوبر) من السنة نفسها، إلى ما للتحرير المسيحيّ من معنى إنجيليّ. كما تحدّث عن الموضوع نفسه في يوم «الصلاة من أجل الإرساليّات».

وسجّل المراقبون، في القسم الأوّل من الاجتماع وطوال عاصفة الأفكار التي قامت، تباين وجهات النظر عن مفهوم «البشارة الإنجيليّة» لدى أساقفة العالم الأوّل والعالم الثالث. وبدت وثائق المجمع الثانيكانيّ الثاني منارةً لتفسيرات متباينة، عكس التطوّرات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والدينيّة التي أثّرت في الكنيسة الجامعة على أرض الواقع. وقد عبّر عدد كبير من أساقفة أمريكا اللاتينيّة عن تحفّظاتهم على «ورقة العمل» التي كان قد أسهم، في النصيب الأكبر من صياغتها، اللاهوتيّ الإيطاليّ جراسّو، لأنّها كانت تعكس صورة محافظة متطرّفة وتجريديّة للكنيسة.

وفي القسم الثاني من اجتماعات السينودس، ظهرت مشاكل خاصّة مرتبطة بلاهوت التحرير. فنوقشت المبادئ اللاهوتيّة التي يجب أن ترتكز عليها البشارة الإنجيليّة في عالم اليوم. وارتفعت في هذه الجلسات أصوات بعض الأساقفة لتشير مباشرةً إلى ما يسبّبه لاهوت التحرير من جدل ومشاكل داخل الكنيسة الكاثوليكيّة. وطُلِب إلى المجتمعين أن يحاولوا تفادي الثنائيّة التي تُهدِّد البشارة الإنجيليّة التقليديّة.

ويتّضح ممّا سبق أنّ خلافات ظهرت في هذا السينودس بين الجناحَين الرئيسيّين داخل الكنيسة في تلك الأيّام. فالأوّل يطالب بنظرة جديدة للكنيسة والبشارة، تعتمد على الانطلاق من الواقع الاجتماعيّ التاريخيّ الذي تعيشه الكنيسة في بلاد أمريكا اللاتينيّة، والآخر يخشى الانقسام والثنائيّة الطبقيّة وتلاشي التعليم العقائديّ.

وهذه المسائل المعلّقة تبلورت في العالم التالي، في ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٥، في عظة بولس السادس الرسوليّة «إعلان البشارة». فبعد أن شدّد البابا على العلاقة الحميمة التي تربط بين عمليّة «التربية الإنسانيّة» و«التحرير الشامل» من جهة، و«إعلان البشارة» من جهة أخرى، سواء أكان

من الزاوية الأنتروبولوجيّة أم من الزاوية اللاهوتيّة أو من الزاوية الكتابيّة، حاول أن يُبرز الفوارق التي لا تزال قائمة بين «الترقية» و«التحرير» وبين «البشارة». ورفض البابا جمع الثلاثة، على وجه مبسَّط، في مفهوم واحد. لا بل أشار مباشرةً وصراحةً إلى «لاهوت التحرير»، حينما بيَّن أنّ تبنّي وجهة نظر هذا اللاهوت قد يؤدّي إلى بعض المواقف التي تحمل البشارة على نفي ذاتها، لا بل على هدم ذاتها، لأنّ هذا اللاهوت ينسى أنّ الله هو مصدر سلام الإنسان وتحريره النهائيّ.

مؤتمر المكسيك (١١ ـ ١٥/٨/١٩٧٥)
ومحاولة للنقد الذاتيّ

عُقد هذا المؤتمر تحت عنوان «التحرير والعبوديّة»، وكان بمثابة مناسبة يتنهزها المجتمعون من مختلف بلدان أمريكا اللاتينيّة ليؤكّدوا لأنفسهم وللآخرين قوّة الدفع الذي يسير بها لاهوت التحرير، بالرغم من العقبات السياسيّة والكنسيّة. وبلغ عدد الحاضرين سبعمائة شخص، وكلّهم بجمعهم هدف واحد هو مواصلة مسيرة لاهوت التحرير ومحاولة تقييم هذه المسيرة، في ضوء التجارب المعاشة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ السفير البابوي في المكسيك كان حاضرًا يمثّل البابا. وفي ختام المؤتمر، دعاه إلى الوحدة في الإيمان، مع الاحتفاظ بالتعدّديّة المنهجيّة، كما حثّ المجتمعين على تجنّب كلّ ما هو موقف جذريّ يؤدّي إلى هبوط المستوى اللاهوتيّ، وعلى البحث عن إعادة الصلة بأفضل ما يتضمّنه اللاهوت التقليديّ الكاثوليكيّ الأصيل.

تدخُّل الدوائر الڤاتيكانيّة
وتشكيل «اللجنة اللاهوتيّة الدوليّة» (١٩٧٦)

وعلى أثر الانتقادات التي وُجّهت إلى لاهوت التحرير، والتوتّرات التي كانت قد ظهرت بوضوح في سينودس رومة الذي انعقد في ١٩٧٤، فضلاً عن الموقف السلبيّ من لاهوت التحرير، الذي اتّخذه مجلس أساقفة أمريكا اللاتينيّة

في ١٩٧٥، عمدت بعض الدوائر الفاتيكانيّة إلى التحرّك لاحتواء الموقف. وقام البابا بولس السادس بتكليف «اللجنة اللاهوتيّة الدوليّة» بالقيام بدراسة خاصّة حول «لاهوت التحرير». وأصدرت اللجنة وثيقة عنونتها «الترقية الإنسانيّة والخلاص المسيحيّ». وإليك ملخّصًا وجيزًا لأهمّ ما ورد في هذه الوثيقة. تليه بعض الملاحظات:

مقدّمة: علاقة لاهوت التحرير بالمجمع الفاتيكانيّ الثاني، وظهور تيّارات مختلفة تنتمي إلى لاهوت التحرير، وصعوبة التمييز بين هذه التيّارات. وصعوبة تتبّع تطوّر هذه التيّارات والعلاقات السياسيّة الاجتماعيّة التي تعبّر عنها، والخوف الذي يصاحب ظهور هذه التيّارات من تسييس البشارة وفصم عرى الوحدة في الكنيسة.

١) **نقطة انطلاق لاهوت التحرير**: إنتشار الفقر والإحساس الشديد باللاعدالة عند الفقراء، والاستناد إلى ما ورد في الوظائف الكنسيّة في هذا الصدد واعتبار الظروف المادّيّة والمعنويّة السيّئة «علامات» تدعو إلى الإجابة عنها، والعلاقة بين الخبرة الحياتيّة وعلم اللاهوت، وظهور التساؤل: هل هناك طريق واحد للفكر اللاهوتيّ؟ وضرورة ممارسة النقد الذاتيّ.

٢) **ظهور نمط جديد من اللاهوت وما يثيره من صعوبات**

آ) بداية جديدة لتحقيق الملكوت، وفهم جديد لمعنى هذا الملكوت. وهناك وجوه إيجابيّة وأخرى سلبيّة للفهم والممارسة وخطر الاختزال ومتاعب التجذير.

ب) خطر إخضاع كلّ شيء للمناقشة والتسييس.

ج) التركيز على التنديد النبويّ وتطبيق النظريّات الاجتماعيّة.

٣) **التركيز على بعض وجوه اللاهوت الكتابيّ**

آ) قراءة العهد الجديد من زاوية علاقته بموضوع التحرير.

ب) درس العهد الجديد أيضًا واستخلاص معنى التحرير المسيحيّ.

٤) الاعتبارات التنظيميّة واللاهوتيّة

آ) مكانة الله والإنسان في عمليّة التحرير، ومعنى التحرير الشامل، واللاعدالة البنيويّة، ومفهوم الكرامة البشريّة والنفسيّة.

ب) ما هي العلاقة القائمة بين «ترقية الإنسان» و«خلاص الإنسان» في داخل الكنيسة؟ ما معنى كلمات «الحياد» و«عدم الإنحياز»؟ ولماذا ترفض الكنيسة التزام الكينة بالسياسة؟ ما هي رسالة العلمانيّ؟ وحدة الكنيسة وعلاقتها بالصراع الطبقيّ. معنى المصالحة وعدم التسامح.

٥) الخاتمة: الأخطار الكامنة في قبول التعدُّديّة، تحفّظات على لاهوت التحرير.

إنّ قراءة نقديّة لهذه الوثيقة تُشعر بأنّها اكتفت بالبحث في بعض وجوه لاهوت التحرير. ولم توفّر لنفسها الفرصة لتميّز التيّارات المختلفة التي يتكوّن منها هذا اللاهوت. وبالرغم من صعوبة هذا التمييز، فلو تمّ عن يد اللجنة المذكورة، لأتى الجميع بمساعدة كبيرة.

ولذلك، فالتقصير من قبل اللجنة يجعل من النقد الذي وجّهته الوثيقة إلى لاهوت التحرير نقدًا غير موضوعيّ. ومن جهة أخرى، كان من المتوقّع أن تركّز اللجنة دراستها على «المنهجيّة» التي يستخدمها لاهوت التحرير أكثر منها على أيّ شيء آخر، نظرًا إلى الجدّيّة التي استُخدمت بها هذه المنهجيّة، والأهمّيّة التي تولى لها بين العناصر الأساسيّة التي تكوّن لاهوت التحرير.

لاهوت التحرير... إلى الأمام، رغم كلّ شيء
مؤتمر دار السلام في آب (أغسطس) ١٩٧٧

بالرغم من جميع تلك التحفّظات، ظلّ لاهوت التحرير يواصل مسيرته إلى الأمام بقدرة هائلة على التأثير. ففي سنة ١٩٧٧، انعقد مؤتمر دار السلام في تنزانيا، وهو مؤتمر دوليّ جمع ممثّلين من قارّتي أفريقيا وآسية، إلى جانب أمريكا اللاتينيّة. وكان هذا المؤتمر بداية إنشاء ما يُسمّى «الجمعيّة المسكونيّة

للاهوتيّي العالم الثالث». أمّا موضوعه فكان البحث عن العناصر المشتركة التي توحّد بين لاهوتيّي العالم الثالث، إلى جانب الشعور بالاختلافات والميزات الخاصّة بكلّ من البلدان، والتعاون على الكفاح المشترك المبنيّ على التحرير من كلّ أشكال الظلم الذي تعانيه شعوب العالم الثالث.
ومن جهة أخرى، تكاثر عدد المطبوعات التي تتحدّث عن لاهوت التحرير واتّخذت لهجة أكثر تشدّدًا.

مؤتمر بويبلا (١/٢٧ - ١٩٧٩/٢/١٢)
وسيطرة التيّار المحافظ على مجلس الأساقفة
في أمريكا اللاتينيّة

أدّت وفاة البابا بولس السادس والبابا يوحنّا بولس الأوّل إلى تأجيل المؤتمر العامّ الثالث لمجلس أساقفة أمريكا اللاتينيّة، وانعقد بعد ذلك في بويبلا (Puebla) من ١/٢٧ إلى ١٩٧٩/٢/١٢. والبابا يوحنّا بولس الثاني هو الذي حدّد هذا التاريخ، كما أنّه اشترك في افتتاحه في المكسيك.

ويمكن القول إنّ مؤتمر بويبلا هو خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى مؤتمر مدلّين، نظرًا إلى سيطرة الجناح المحافظ من الأساقفة على المؤتمر.

وقبيل انعقاد المؤتمر، ظهرت مشاكل متعدّدة في أثناء إعداده. ففي خاتمة مشروع وثيقة العمل، تناول المشتركون في صياغتها تقييم لاهوت التحرير بطريقة نظريّة جامدة، غير مراعين الظروف المختلفة التي نبع فيها، كما أنّ الضغوطات التي كانت تحيط بهم من كلّ جانب اضطرّتهم إلى إقصاء أبرز وجوه لاهوتيّي التحرير من الاجتماع، ممّا حدا ببعض هذه الوجوه إلى تنظيم مؤتمر موازٍ لمؤتمر «بويبلا»، الأمر الذي أثار توتّرًا كبيرًا في داخل المؤتمر الرسميّ وخارجه. وقد روعي في وثيقة المؤتمر النهائيّة اختفاء جميع أشكال النقد للمؤسّسات الكنسيّة.

وعلى الرغم من كلّ ذلك، لم يستطع المؤتمرون إطفاء الشعلة التي أوقدها مؤتمر مدلّين عام ١٩٦٨، فاحتفظ المشتركون في المؤتمر بضرورة تحليل المجتمع الأمريكيّ اللاتينيّ تحليلاً واقعيًّا، بالالتزام بالبشارة الإنجيليّة الجريئة، وأكّدوا

التوجُّه نحو الفقراء، كما أيّدوا الدفاع عن حقوق الإنسان واحتفظوا بمبدأ «التحرير»، ولكن وفقًا لروح الوثيقة التي كان قد أعلنها البابا بولس السادس «إعلان البشارة» وعلاقتها «بالترقية الإنسانيّة».

موقف الرهبانيّة اليسوعيّة من «التحليل الماركسيّ» (١٩٨٠)

وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٨٠، ظهرت وثيقة هامّة ذات صبغة كنسيّة تُبيِّن مدى صلتها الحميمة بالمناقشات الدائرة حول موضوع لاهوت التحرير. فقد وجّه الرئيس العامّ على الرهبانيّة اليسوعيّة في ذلك الوقت، الأب بدرو أرّوبه، رسالة إلى رؤساء الأقاليم اليسوعيّين العاملين في أمريكا اللاتينيّة، يحدِّد فيها موقف الرهبانيّة من قضيّة «التحليل الماركسيّ» المستخدَم في لاهوت التحرير.

وهذه الرسالة، التي تتّسم بدقّة العبارة، كُتبت بناء على طلب رؤساء الأقاليم اليسوعيّين في أمريكا اللاتينيّة. وتستشهد هذه الوثيقة مرارًا بما جاء في بيان «بويبلا». وعلى الرغم من الموقف الرافض للتحليل الماركسيّ الذي يُفهم من صلب النصّ، فإنّ هذا الرفض لم يمنع الأب أرّوبه عن إضافة أربع ملاحظات ذات دلالة واضحة مرتبطة بموضوعنا، ويمكن إيجازها بما يلي:

١) ضرورة التخطيط لمشاريع تحقّق تحرير الإنسان من كلّ قهر وسيطرة، لأنّ ذلك يتّفق مع المشروع المسيحيّ.

٢) يجب التنديد بالتحليلات الاجتماعيّة «الليبراليّة» وتصوُّراتها المادّيّة التي لا تقلّ خطرًا عن «المادّيّة الجدليّة» الماركسيّة، وكلتاهما تتعارضان مع روح المسيحيّة.

٣) الحفاظ على موقف الحوار، وحتّى على التعاون أحيانًا مع الماركسيّين، مع الاحتفاظ بالشخصيّة الكهنوتيّة والرهبانيّة.

٤) الرفض المبدئيّ لكلّ تلاعب بموقفنا الرافض «للتحليل الماركسيّ»

واستخدام هذا الموقف بصراحة يتبع بضرورة الالتزام بالدفاع عن العدالة

بداية الحوار (الصراع) المكشوف بين الدوائر الڤاتيكانيَّة وممثّلي لاهوت التحرير (١٩٨٢ - ١٩٨٦)

١) عشر ملاحظات حول لاهوت غوتييريز (١٩٨٢)

هذا هو أوّل عنوان وثيقة ظهرت علنًا من قبل سلطة رسميّة في الڤاتيكان، وهي مجمع العقيدة الإيمانيّة. والوثيقة موجّهة إلى لاهوت التحرير. وقد صدرت إثر اجتماع عقده رئيس المجمع، الكاردينال راتسِنْغر مع أساتذة دولة بيرو في نهاية العام ١٩٨٢.

وكانت تلك الملاحظات قاسية للغاية، إذ إنّها ذهبت في وصف لاهوت غوتييريز إلى حدّ جَعْله نسخة معدّلة من الإيديولوجيّة الماركسيّة، كما وصفت هدف هذا اللاهوت بأنّه «حوّل المسيحيّة إلى مجرّد عنصر من عناصر التعبئة إلى الثورة».

٢) «نتائج الاختيار الماركسيّ الجوهريّة» (١٩٨٤)

هذا هو عنوان الوثيقة الثانية «الشبه الرسميّة» التي صدرت عن تقرير شخصيّ للكردينال راتسِنْغر نفسه، وكان قد سلّمه إلى المجلّة الإيطاليّة ذات التوجّهات اليمينيّة المسمّاة «ثلاثون يومًا». نُشرت هذه الوثيقة في ٤ آذار (مارس) ١٩٨٤. وقامت الصحافة العالميّة بنقل التقرير عن المجلّة وتناولته بالتحليل والنقد، كلٌّ بحسب اتّجاهاته.

وأثار هذا التقرير في وقته لغطًا كبيرًا بسبب نبرته الشديدة على لاهوت التحرير. فقد اعتبره «نابعًا من رؤية مختلفة تمامًا عن الرؤية المسيحيّة».

وما نجم عن هذا التقرير من انتقادات حمل الكردينال راتسِنْغر على عقد مؤتمر صحفيّ، بعد عودته من بوغوتا. فحاول أن يوضح وجهة نظره بطريقة

أكثر اعتدالاً، فخفَّف من النبرة التي اتَّسمت بها الوثيقة التي نشرتها المجلّة الرومانيَّة.

وبعد هذا المؤتمر الصحفيّ بقليل، قام ليونارد بوف وكنودفيس بالردّ على ما جاء في الوثيقة المذكورة. واتَّسم الردّ بالمسؤوليَّة والتوازن واندرج حول المفاهيم التي انتقدها الكردينال، كمفهوم «الكنيسة الشعبيَّة» ودور «التحليل الماركسيّ».

٣) «تعليم حول بعض وجوه لاهوت التحرير» (١٩٨٦)

هذا هو عنوان أوَّل وثيقة رسميَّة صدرت عن مجمع العقيدة الإيمانيَّة، تتناول الموضوع على وجه شامل ومتوازن. وقد اختلفت النبرة عن لهجة الوثيقة السابقة، وكانت لهجة «تعليم»، كما ورد في العنوان. كما أنَّ الأسلوب الذي صيغت به يتناسب مع الجهة الصادرة عنه، أي مجمع العقيدة الإيمانيَّة..

حاولت الوثيقة أن تشدِّد منذ البدء على أنَّ مصطلح «لاهوت التحرير» يغطّي كثيرًا من التيَّارات التي يختلف بعضها عن بعض، كما أكَّدت أنَّ فكرة «لاهوت التحرير» نفسها يمكن قبولها، لأنَّها تعبِّر عن احتياج مشروع لأناس يشعرون «بالشقاء بصفته خرقًا لا يمكن الإغضاء عنه لكرامتهم البشريَّة التي وُلدوا فيها».

ويمكن تلخيص هدف الوثيقة في أنَّها حاولت أن تُميِّز بين التيَّارات المختلفة التي تتنازع لاهوت التحرير، وأن تستخلص وتُقيِّم، في الوقت نفسه، المعضلات والمسائل التي تطرحها هذه «الرؤية الجديدة للمسيحيَّة». وأثارت أيضًا بعض التساؤلات العميقة والخطيرة حول معطيات هذا اللاهوت للدخول في حوار مع ممثّليه، يؤدِّي إلى توضيح ما يسبِّب البلبلة داخل الكنيسة.

٤) «تعليم حول الحرِّيَّة المسيحيَّة والتحرير» (١٩٨٦)

صدرت هذه الوثيقة رسميًّا في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٨٦ عن مجمع العقيدة الإيمانيَّة. وهي لا تتناقض مع الوثيقة السابقة، بل تُبرز العلاقة «العضويَّة» التي تربط بين الوثيقتين، بحيث إنَّه «يجب أن تُقرأ الواحدة في ضوء

«الحرية». نجد في هذه الوثيقة ذلك الأسلوب الذي اتّسم به الدستور الرعائيّ «الكنيسة في عالمنا المعاصر»، الذي صدر عن المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

«الوثيقة التي نحن بصددها تتبع الخُطّة نفسها، إذ إنّها تبدأ بتحليل دقيق «لوضع الحرّيّة في عالم اليوم»، مذكّرة بأنّ «البحث عن الحرّيّة» أو «التطلّع إلى التحرير يتأصّلان في التراث المسيحيّ نفسه».

وحينما تتناول الوثيقة، في الفصل الرابع، «رسالة الكنيسة المحرِّرة»، وفي الفصل الخامس «عقيدة الكنيسة الاجتماعيّة من أجل ممارسة مسيحيّة للتحرير»، فهي ترسم طريقة السلوك الواجب اتّباعها لمعالجة بعض المشاكل الاجتماعيّة المطروحة عليها، كالبطالة ومشكلة اللاجئين والمشاكل التي تواجهها المدارس الخاصّة. ويمكن تلخيص المبادئ الكبرى التي تحكم هذا السلوك في مثل هذه الحالات بما يلي:

١) الوحدة التي تربط بين عمليّة التبشير وعمليّة ترقية الإنسان، مع الاحتفاظ بالتمييز بينهما، من حيث إنّ لكلّ مجال خصوصيّته وأهمّيّته.

٢) ضرورة «التغييرات البنيويّة» و«في العمق» مع الاعتبار أنّ هذه التغييرات ستفقد معناها، إن لم يكن هناك «تحوُّل عميق» في داخل قلب الإنسان. فإذا تحدّثنا عن «البنى المطبوعة بالخطيئة» أو عن «الخطيئة البنيويّة» أو عن «الخطيئة الاجتماعيّة»، فإنّنا لا نُلغي المعنى اللاهوتيّ الأصليّ لكلمة «خطيئة».

٣) قبول «تعدّديّة الطرق العمليّة» في النشاط الاجتماعيّ، مع ضرورة الاحتفاظ بالمصلحة العامّة كهدف لكلّ نشاط، وإلى جانب المحافظة على الوحدة والاتّساق في أثناء القيام بهذا النشاط.

٤) اللجوء إلى الكفاح المسلّح مشروط على وجه استثنائيّ بالمواقف الملحّة للغاية.

٥) يقتضي «حبّ الفقراء التفضيليّ» رفض «الاختيار المتحزّب ذي النزعة الصراعيّة»، علمًا بأنّ هذه النقطة تُعتبر من أهمّ أسباب الخلاف بين رومة

ولاهوتيّي التحرير في نظرهم، يقتضي هذا الحبّ الانضمام إلى حزب الفقراء.

وممّا سبق، نستطيع أن نقول إنّ هذه الوثيقة تبقى، شأن الوثائق التي سبقتها، موضعًا للحوار بين السلطة الكنسيّة وأنصار لاهوت التحرير، تاركة الباب مفتوحًا للوصول إلى المصالحة المرجوّة

مضمون لاهوت التحرير

في نهاية هذه الجولة التاريخيّة، يبدو واضحًا أنّ هناك قاسمًا مشتركًا يجمع بين التيّارات المختلفة التي يتكوّن منها لاهوت التحرير. ومع ذلك، فلا يجوز لنا أن نهمل الفروق الكبيرة التي تميّز كلاً من التيّارات:

١) القبول بالوثائق التي أقرّها المجمع الفاتيكانيّ الثاني، ولا سيّما تصوّره عن التزام الكنيسة بقضايا المجتمع، إلى جانب فهمه الجديد للكتاب المقدّس.

٢) الانطلاق من مفهوم جديد للّاهوت يأخذ بعين الاعتبار وضع القارّة الأمريكيّة اللاتينيّة التاريخيّ، الذي كان نقطة الانطلاق في اعتبار اللاهوت النظريّ التقليديّ والبعيد عن الممارسة العمليّة غيرَ مؤهّل للتعبير عن ذلك الوضع التاريخيّ.

٣) الاعتراف بأنّ الوضع في أمريكا اللاتينيّة بمجمله يعبّر عن «سرّ اللاعدالة» وعن سجن يتقيّد فيه التخلّف بجميع وجوهه، ولا سيّما اللاعدالة البنيويّة. ولهذا السبب، يقتضي الموقف فعلاً تحريريًّا مسيحيًّا أصيلاً وكاملاً.

٤) الاشتراك في منهجيّة استقرائيّة واحدة تنبع من معطيات الواقع الفعليّ، لتصل إلى المبادئ العامّة. وهذه المنهجيّة تتّسم بالطابع المطابق للتعليم القويم، الذي يُعتبَر أنّه هدفها المبدئيّ. ويضاف إلى ذلك الدور الهامّ الذي تقوم به العلوم الاجتماعيّة المعاصرة، داخلَ هذه المنهجيّة، فهي في خدمة اللاهوت، كما كانت الفلسفة فيما مضى.

٥) الانْفاق على تبنّي مبدأ التنديد النبويّ الذي يستند إلى توجُّه جذريّ نحو

الفقراء، بصفتهم المكان المفضّل لممارسة اللاهوتيّة ولعيش الإيمان المسيحيّ، على مثال يسوع، الذي لا بُدّ لنا أن نُدركه من خلال نظرة مسيحانيّة «صاعدة»، أي انطلاقًا من إنسانيّته، لا من ألوهته.

٦) إعتبار الكنيسة الحيّة كائنة انطلاقًا من «جماعات الحياة المسيحيّة الشعبيّة»، كمكان مفضّل «للتعبير اللاهوتيّ».

كلّ هذه النقاط، إلى جانب ما يمكن إضافته، يُعتبر إرثًا مشتركًا يجوز النظر إليه بصفته «مسائل قابلة للنقاش» في إطار الكنيسة. ولكنّه لا يجوز اعتباره بدعة خارجة عن تعليم الكنيسة، علمًا بأنّ أغلب تلك المسائل هي من صلب المتطلّبات الإنجيليّة.

فإذا كان لدينا بعض التحفّظات، فيبي لا تتناول هذه النقاط التي تمّ الاتّفاق عليها في مؤتمر مدلّين ومؤتمر بوبيلا، بل ما نجده من مواقف متطرّفة في بعض التيّارات التي اتّخذها أحيانًا لاهوت التحرير: من عدم دقّة في التحليل الاجتماعيّ الاقتصاديّ لتاريخ أمريكا اللاتينيّة، وحصر هذا التحليل، بطريقة سطحيّة، في التناقض الجذريّ بين الاشتراكيّة والرأسماليّة، وخلوّ استخدام «أدوات التحليل الماركسيّ» من النظرة النقديّة إلى هذه الأدوات، والتعميم السطحيّ لمبدأ الصراع الطبقيّ ومبدأ استخدام العنف وقراءة الكتاب المقدّس قراءةً ماديّة وتسييس خدمة الأسرار الكنسيّة...

كلّ هذه الأخطار يمكن تفاديها، ولكن المهمّ أن نلجأ إلى الاعتدال في المواقف الشخصيّة وفي توجيه النقد. ويجب الرجوع دائمًا إلى ما هو جوهر إيماننا، والشروع في تعاون خلاّق بين اللاهوتيّين والسلطة الكنسيّة. هذا ما نقترحه من أسلوب لكي يهتدي لاهوت التحرير إلى وحدته فيصبح تيّارًا خلاّبًا يحترم التعدّديّة في داخل الإيمان الواحد.

أهمّ المراجع

Leonardo BOFF, *Jésus-Christ Libérateur. Essai de christologie critique*, Ed. du Cerf, Paris, 1974.

Théologies de la libération. Documents et débats, Ed. du Cerf/ Centurion, Paris, 1985.

Gustavo GUTIEREZ, *La théologie de Libération*, Paris, 1974.

Deane William FERM, *Third World liberation theologies*, New-York, 1986.